الذى يعلم مَنْ خلقه ، ولِمَ خلقه » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

أراد الحق سبحانه أن يبرهن لنا على طلاقة قدرته تعالى ، فقال : ﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [العنكبوت] والخَلْق : إيجاد المعدوم ، لكن لغرض مخصوص ، ولمهمة يؤديها ، فإنْ خلقت شيئاً هكذا كما اتفق دون هدف منه فلا يُعَد خلقاً .

ومسألة الخَلْق هذه هى الوحيدة التى أقرَّ الكفار بها لله تعالى ، فلما سألهم : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [لقمان] فلماذا أقرُّوا بهذه بالذات ؟ ولماذا ألجمتهم ؟

هذا ليس عجيباً منهم ؛ لأننا نشاهد كل مَنْ يأتى بجديد فى الكون حريصاً على أنْ ينسبه لنفسه ، وعلى أنْ يُبيِّن للناس مجهوداته وخبراته ، وأنه اخترع كذا أو اكتشف كذا ، كالذى اكتشف الكهرباء أو اخترع (التليفون أو التليفزيون) .

ما زِلْنا حتى الآن نذكر أن قانون الطفو لأرشميدس ، وقانون الجاذبية لنيوتن ، والناس تسجل الآن براءات الاختراع حتى لا يسرق أحد مجهودات أحد ، ولتحفظ لأصحاب التفوق العقلى والعبقرى ثمرة عبقريتهم .

وكذلك كان العرب قديماً يذكرون لصاحب الفضل فَضْله ، حتى

إنهم يقـولون : فلان أول مَنْ قال مـثلاً : أمـا بعد[1] . وفلان أول من فعل كذا .

إذن : فنحن نعرف الأوائل فى كل المـجالات ، وننسب كل صنعة وكل اخـتراع واكتـشاف إلى صـاحبـه ، بل ونُخلِّد ذكراه ، ونقـيم له تمثالاً .. إلخ .

إذن : فـمـا بالك بالخـالق الأعظم سـبحـانه الذى خلق السـمـوات والأرض وما فيهـما ومَنْ فيهما ، أليس من حقـه أن يعلن عن نفسه ؟ أليس من حـقه على عبـاده أن يعتـرفوا له بالخَلْق ؟ خـاصة وأن خَلْق السموات والأرض لم يدَّعه أحد لنفسه ، ولم ينازع الحق فيه منازع ، ثم جاءنا رسول من عند الله تعـالى يخبرنا بهذه الحقيـقة ، فلم يوجد معارض لها ، والقضية تثبُت لصاحبها إلى أنْ يوجد معارض .

وقد مثَّلنا لهـذه المسألة ـ ولله المثل الأعلى ـ بجمـاعة جلسوا فى مجلس ، فلمـا انفضَّ جمعهم وجد صـاحب البيت محفظـة نقود لواحد منهم ، فسـألهم : لمن هذه المحـفظة ؟ فقالوا جـميعـاً : ليست لى إلا واحد منهـم قال : هى محـفظتى ، فهل يشكُّ صـاحب البيت أنهـا لمن ادَّعاها ؟

ولك أنْ تسأل : ما دام الحق سألهم ﴿ مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ .. (٢٥) ﴾ [لقمان] فقالوا (الله) فلماذا يذكـر الله هذه القضية ؟ قالوا : الحق ـ تبـارك وتعـالى ـ لا يريـد بهـذه الآية أن يخـبـرنا أنه خـالق السمـوات والأرض ، إنما يريد أن يخـبرنا أن خَلْق السـموات والأرض

---

(١) عن أبى موسى الأشعرى قال : « أول من قال أما بعد داود النبى عليه السلام . قال : وهو « فصل الخطاب » أخرجه ابن أبى عاصم فى الأوائل (حديث ١٩١) والطبرانى فى الأوائل (٤٠) . وعزاه السيوطى فى الوسائل (١١٧) لابن أبى حاتم والديلمى عن أبى موسى .

بالحق ، والحق : الشيء الثابت الذى لا يتغير مع الحكمة المترتبة على كل شيء فى الوجود ، فإذا نظرنا إلى خَلْق السموات والأرض لوجدناه ثابتاً لم يتغير شيء فيه .

لذلك يقول سبحانه : ﴿لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ.. (٥٧)﴾ [غافر]

فالسموات والأرض خَلْق هائل عظيم ، بحيث لو قارنته بخَلْق الإنسان لكان خَلْق الإنسان أهون . وانظر مثلاً فى عمر السموات والأرض وفى عمر الإنسان : أطول أعمار البشر التى نعلمها حتى الآن عمر نوح عليه السلام ، وبعد هذا العمر الذى نراه طويلاً انتهى إلى الموت ، فعمر الإنسان معلوم يكون سنة واحدة ، أو ألف سنة لكن لا بُدَّ أن يموت .

أما السموات والأرض وما فيها من مخلوقات إنما خُلِقت لخدمة الإنسان ، فالخادم عمره أطول من المخدوم ، فالشمس مثلاً خلقها الله تعالى من ملايين السنين ، ومازالت كما هى لم تتغير ، ولم تتخلف عن مهمتها ، وكذلك القمر : ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥)﴾ [الرحمن]

أى : بحساب دقيق ؛ لذلك يقولون : سيحدث كسوف مثلاً أو خسوف يوم كذا الساعة كذا ، وفى نفس الوقت يحدث فعلاً كسوف للشمس أو خسوف للقمر مما يدلّ على أنهما خُلقا بحساب بديع دقيق ، ويكفى أننا نضبط على الشمس مثلاً ساعاتنا ، ومع ما عُرِف عن الشمس والقمر من كِبَر حجمهما ، فإنهما يسيران فى مسارات وأفلاك دون صدام ، كما قال تعالى : ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)﴾ [الأنبياء]

هذا كله من معنى خَلْق السموات والأرض بالحق . أى : بنظام

ثابت دقيق منضبط لا يتغير ولا يتخلف في كُلِّ مظاهره ، فأنت أيها الإنسان يمكن أنْ تتغير ؛ لأن الله جعل لك اختياراً فتستطيع أن تطيع أو أن تعصى ، تؤمن أو والعياذ بالله تكفر ، لكن خَلْق السموات والأرض جاء على هيئة القهر والتسخير ، وإن كانت مختارة بالقانون العام والاختيار الأول ، حيث قال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

إذن : خُيِّرت فاختارت ألاَّ تختار ، وخرجت عن مرادها لمراد ربها .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٤٤) ﴾ [العنكبوت] لماذا قال (للمؤمنين) مع أنها آية للناس جميعاً ؟ وسبق أنْ خاطب الله الكافرين ﴿ مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ .. (٢٥) ﴾ [لقمان] فلماذا خصَّ هنا المؤمنين دون الكافرين ؟

قالوا : هناك فَرْق بين خَلْق السموات والأرض ، وبين كَوْنها مخلوقة بالحق ، فالجميع يؤمن بأنها مخلوقة ، لكن المؤمنين فقط هم الذين يعرفون أنها مخلوقة بالحق .

يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ
وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ
عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ
أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) ﴾

بعد أن ذكر الله تعالى بعض مواكب الرسل في إبراهيم وفي موسى ونوح وصالح وهود ولوط وفي شعيب ، ثم تكلَّم سبحانه عن الذين كذبوا هؤلاء الرسل ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِه .. ۝٤٠ ﴾ [العنكبوت] أراد سبحانه أن يُسلِّي رسوله ﷺ بأن لا يزعجه ، ولا يرهقه ، أو يتعب نفسه موقف الكافرين به الذين يصدون عن سبيل الله ، ويقفون من الدعوة موقف العداء .

فقال له مُسلِّياً : ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ .. ۝٤٥ ﴾ [العنكبوت] يعني : لِمَ تحزن يا محمد ومعك الأُنْس كله ، الأُنْس الذي لا ينقضي ، وهو كتاب الله ومعجزته التي أنزلها إليك ، فاشتغل به ، فمع كل تلاوة له ستجد سكناً إلى ربك .

وإذا كان هؤلاء الذين عاصروك لم يؤمنوا به ، ولم يلتفتوا إلى مواطن الإعجاز فيه فداوم أنت على تلاوته علَّ الله يأتي من هؤلاء بذرية تصفو قلوبهم لاستقبال إرسال السماء ، فيؤمنون بما جحده هؤلاء ، والأمر بالتلاوة لبقاء المعجزة .

﴿ اتْلُ .. ۝٤٥ ﴾ [العنكبوت] اقرأ ولا تعجز ولا تيأس ، فالقرآن سلوة لنفسك ؛ لأن الذي يرسل رسولاً من البشر بشيء أو في أمر من الأمور ، ثم يكذب يرجع إلى مَنْ أرسله ، فما دام قومك قد كذَّبوك ، فارجع إليَّ بأن تستمع إلى كتابي الذي أنزلتُه معجزة لك تؤيدك ، وانتظر قوماً يأتون يسمعون منك كلام الله ، فيصادف منهم قلوباً صافية ، فيؤمنون به .

وفَرْق بين الفاعل والقابل ، والقرآن يُوضِّح هذه المسألة ، فمن الناس مَنْ إذا سمعوا القرآن تخشع له قلوبهم ، وتقشعر جلودهم ، ومنهم مَنْ إذا سمعوه قالوا على سبيل الاستهزاء ﴿ مَاذَا قَالَ آنِفًا ..

﴿ ١٦ ﴾ [محمد] تهويناً من شأن القرآن ، ومن شأن رسول الله .

ثم يقرر القرآن هذه الحقيقة : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ[1] وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. ﴿ ٤٤ ﴾ [فصلت]

إذن : فالقرآن واحد ، لكن المستقبل للقرآن مختلف ، فالعبرة فى صفاء الاستقبال لأن الإرسال واحد ، وهل تتهم الإذاعة إنْ كان جهاز (الراديو) عندك معطلاً ، لا يستقبل إرسالها ؟

كذلك مَنْ أراد أن يستقبل إرسال السماء فعليه أنْ يُعد الأذن الواعية والقلب الصافى غير المشوش بما يخالف إرسال السماء ، عليك أنْ تُخرج ما فى نفسك أولاً من أضداد للقرآن ، ثم تستقبل كلام الله وتنفعل به .

وسبق أنْ مثَّلنا لاختلاف المنفعل للفعل بمَنْ ينفخ فى يده وقت البرد بقصد التدفئة ، وبمَنْ ينفخ بنفَسه فى الشاى مثلاً ليبرده ، فهذه للحرارة ، وهذه للبرودة ، الفعل واحد ، لكن المنفعل مختلف .

فقوله تعالى : ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ .. ﴿ ٤٥ ﴾ [العنكبوت] هذه هى مَيْزة معجزتك يا محمد أنك تستطيع أنْ تكررها فى كل وقت ، وأن تتلوها كما تشاء ، وأن يتلوها بعدك مَنْ سمعها ، وستظل تتردد إلى يوم القيامة .

أما معجزات الرسل السابقين فكانت خاصة بمَنْ شاهد المعجزة ، فإذا مات مَنْ شهدها فلا يعرفها أحد بعدهم حتى لو كان معاصراً لها ولم يرَهَا ، فالذين عاصروا مثلاً انقلاب عصا موسى حية ولم يشاهدوا هذا الموقف ، ماذا عندهم من هذه المعجزة ؟ لا شىء إلا أننا

---

(١) الوقر : ثقل فى السمع أو صمم . [القاموس القويم ٢/٣٥٠] .

نُصدِّقها ونؤمن بها ؛ لأن القرآن أخبرنا بها .

إذن : فمعجزات السابقين تأتى كلقطة واحدة أشبه ما تكون بعود الكبريت الذى يشتعل مرة واحدة ، رآها مَنْ رآها وتنتهى المسألة ، ولكن القرآن حدثنا بكل معجزات الرسل السابقين فانظر إذن ما أصاب الرسل جميعاً من خيرات سيدنا رسول الله ، وكيف خلَّد القرآن ذكرهم ، وامتدت معجزاتهم بامتداد معجزته .

فكأن القرآن أسدى الجميل إلى كل الرسل ، وإلى كل المعجزات ؛ لذلك قال تعالى عن القرآن : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا(١) عَلَيْهِ .. (٤٨) ﴾ [المائدة]

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] ومعلوم أن اتْلُ : التلاوة قَوْل من فعل اللسان و ﴿ وَأَقِمِ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] من فعل الجوارح ، والإنسان له جوارح متعددة اشتهر منها خمس هى : العين للإبصار ، والأذن للسمع ، والأنف للشم ، واللسان للتذوق ، والأنامل للَّمس .

فقالوا على سبيل الاحتياط : الجوارح الخمسة الظاهرة وقد ظهر فعلاً مع تقدُّم العلوم اكتشفوا فى الإنسان حواسَّ أخرى ووسائلَ إدراك لم تُعرف من قبل ، كحاسة العضل التى تزن بها ثقل الأشياء ، وإلا فبأىِّ حاسة من حواسِّك الخمسة تعرف الثقل قبل أن ترفع الشىء من على الأرض ؟

وكحاسة البَيْن ، والتى بها تستطيع أنْ تُميِّز بين سُمْك الأشياء

---

(١) المهيمن : الرقيب المسيطر ، والقرآن مهيمن على الكتب السابقة ، أى رقيب عليها وحافظ لما فيها من الحق ، ومسيطر عليها يبين ما فيها من الحق وما أدخله الناس عليها من الباطل . [القاموس القويم ٢/٣٠٨] .

بين أناملك ، فحين تذهب مثلاً إلى تاجر الأقمشة ، فتتناول القماش بين أناملك و (تفركه) برفق ، فتستطيع أن تعرف أن هذا أسْمَك من هذا .

ومن عجيب الأمر فى مسألة الجوارح أن يأخذ اللسان شطر الجوارح كلها ، ففعل الحواس الخمسة يسمى عملاً ، والعمل ينقسم : إما قول ، وإما فعل . فكل تحريك لجارحة لتؤدى مهمة يسمى عملاً ، لكن عمل اللسان يسمى قولاً ، أما من بقية الجوارح فيسمى فعلاً .

فأخذ اللسان هذه المكانة ؛ لأن به الإنذار من الحق ، وبه التبشير ، وبه البلاغ من الرسول ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :
﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٢ ﴾ [الصف]

ولم يقل : ما لا تعملون . لأن القول يقابله الفعل ، وهُما معاً عمل ، والعمل بنية القلب .

لكن ، لماذا اختار الصلاة من بين أعمال الجوارح ؟ قالوا : لأنها قمة العمل كما سماها النبى ﷺ : « الصلاة عماد الدين »[1] وبها نُفرِّق بين المؤمن والكافر . ويبقى السؤال : لماذا أخذتْ الصلاة هذه المكانة من بين أركان الإسلام ؟

ونحب أنْ نشير هنا إلى أن خصوم الإسلام وبعض أهله الذين يخافون من بعثه أنْ يقضى على سلطتهم وطُغْيانهم وجبروتهم يريدون حَصْر الإسلام فى أركانه الخمسة ، فإنْ قُلْت بهذه المقولة

(١) قال الحافظ العراقى فى تخريجه للإحياء (١٤٧/١) : « رواه البيهقى فى الشُّعَب بسند ضعفه من حديث عمر » . وقال الملا على القارى فى « الأسرار المرفوعة » (حديث ٥٧٨) : « قال ابن الصلاح فى مشكل الوسيط : إنه غير معروف وقال النووى فى التنقيح : إنه منكر باطل . لكن رواه الديلمى عن على كما ذكره السيوطى فى الدرر المنتثرة (حديث ٢٧٩) .

لا يتعرضون لك ، وأنت حر فى إطار أركان الإسلام هذه ، لكن إياك أن تقول : إن الإسلام جاء ليُنظِّم حركة الحياة ؛ لأن حظهم فى حَصْرْ الإسلام فى أركانه فقط .

وما فَهم هؤلاء أن الأركان ليست هى كل الإسلام ، إنما هى أُسُسه وقواعده التى يقوم عليها بناؤه ، لكنهم يريدون أنْ يعزلوا الإسلام عن حركة الحياة . فنقول لهم : نعم ، هذه أركان الإسلام ، أمَّا الإسلام فيشمل كل شىء فى حياتنا ، بدايةً من قمة العقيدة فى قولنا : لا إله إلا الله محمد رسول الله إلى إماطة الأذى عن الطريق ؛ لأن الإسلام دين يستوعب كل أقضية الحياة ، كيف لا وهو يُعلِّمنا أبسط الأشياء فى حياتنا .

ألاَ تراه يهتم بأحكام قضاء الحاجة ودخول الخلاء ، وما يتعلق به من آداب وأحكام ؟ ألاَ ترى أن صاحب الحِسْبة(١) المكلَّف بمراقبة الأسواق ، وتنفيذ أحكام منهج الله فى الأَرض إذا رأى جزاراً ينفخ ذبيحته بفمه يقوم بإعدام هذه الذبيحة ؛ لأن الهواء المستخدم فى نفخها هواء غير صحى ، فهو زفير مُحمَّل بثانى أكسيد الكربون ، وقد يحمل غازات أخرى ضارة لا بُدَّ أنْ تنتقل إلى لحم الذبيحة ؟

كما أن من مهمته أن يمر بالحلاقين ، ويتفقد مدى نظافتهم وسلامتهم من الأمراض ، وإذا اشتم من أحدهم رائحة ثوم أو بصل مثلاً أمره بإغلاق محله ، وعدم العمل فى هذا اليوم حتى لا يتأذَّى الناس برائحته .

---

(١) شرح الإمام أبو حامد الغزالى فى كتابه « إحياء علوم الدين » الحسبة وكل ما يتعلق بها من أركانها الأربعة : المحتسب ، والمحتسب عليه ، والمحتسب فيه ، ونفس الاحتساب » وما يتعلق بكل منها من شروط ، ودرجات الاحتساب ، ثم آداب المحتسب من العلم والورع ، وحسن الخلق . وذلك بتفصيل فليرجع إليه فى « كتاب الأمر بالمعروف » من « إحياء علوم الدين » .

فأىُّ شرع هذا الذى يحافظ على سلامة الناس ومشاعرهم إلى هذا الحدِّ ؟ إنه دين الله ومنهجه الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة فى حركة الحياة إلا ووضع لها أحكاماً وآداباً . أمثْل هذا الشرع يُعزل عن حركة الحياة ويُقيَّد وينحصر فى مسائل العبادات وحدها ؟

إنك حين تنظر إلى متاعب العالم المتخلف الآن - دَعْك من العالم المتقدم - ستجد أن متاعبه اقتصادية ، ولو تقصيْتَ الأسباب لوجدتها تعود إلى التخلى عن منهج الله وتعطيل أحكامه ، ووالله لو أنهم أخذوا فى أزمتهم الاقتصادية بقول النبى ﷺ : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع »[1] .

لو عملوا بهذا وتأدَّبوا بأدب رسولهم لخرجوا من هذه الأزمة ، وتقلَّبوا فى رَغَد من العيش ، إنك لو تحليْتَ بهذا الأدب فى مسألة الطعام والشراب لكفتْك اللقمة واللقمتان ، وأشهى الطعام ما كان بعد جوع مهما كان بسيطاً .

أما الآن ، فنرى الناس يلجئون إلى المشهِّيات قبل الطعام ، وإلى المهضمات بعده ، لماذا ؟ لأنهم خالفوا هَدْى رسولهم ﷺ ، فهم يأكلون على شبَع ، ويأكلون بعد الشِّبَع .

والحق - تبارك وتعالى - يقول : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا .. (٣١)﴾ [الأعراف] وأُثِر عن العرب الذين عاشوا فى شظف من العيش : نِعْم الإدام الجوع . نعم إنه (الغموس) الحقيقى ، والمشهِّى الأول .

---

(١) عن المقدام بن معد يكرب قال النبى ﷺ : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن ، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » أخرجه أحمد فى مسنده (١٣٢/٤) ، والترمذى فى سننه (٢٣٨٠) ، وابن ماجة فى سننه (٣٣٤٩) .

نعود إلى مكانة الصلاة بين العبادات ، ولماذا كانت هى عماد الدين ، ومعنى : « الصلاة عماد الدين »[1] و « بُنى الإسلام على خمس »[2] أن الدين أشياء أخرى ، وهذه هى أُسُسه وقواعده ، وحين نتتبع هذه القواعد نجد أن الركن الأول ، وهو أشهد ألاَّ إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله يمكن أن أقولها ولو مرة واحدة ، أما الزكاة فلا تجب مثلاً على الفقير فلا يزكى ، وكذلك المريض لا يصوم ، والمسافر والحائض .. إلخ ، وكذلك الحج غير واجب إلا على المستطيع .

إذن : ما هو الركن الثابت الذى يلازم كل مسلم ، ولا يسقط عنه بحال ؟ إنها الصلاة ؛ لذلك أخذتْ مساحة كبيرة من الوقت على مدى اليوم والليلة ، وبها يكون إعلان الولاء الدائم لله تعالى ، وبها تفرق بين المؤمن وغير المؤمن ، فإنْ رأيتَ شخصاً مثلاً لا يصوم أو لا يزكى أو لا يحج ، فلك أنْ تقول ربما يكون من أصحاب الأعذار ، ومن غير القادرين ، لكن حين ترى شخصاً لا يُصلِّى ، وقد تكرَّر منه ذلك فإنك لا بُدَّ شاكٌ فى إسلامه .

لذلك استحقت الصلاة هذه المكانة بين سائر العبادات منذ بدايات التشريع ، ألا ترى أن كل فرائض الدين شُرعت بالوحى إلا الصلاة ، فقد شُرعت بالخطاب المباشر من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ فى رحلة المعراج .

---

(١) قال العجلونى فى كشف الخفاء (٣٩/٢) : « رواه البيهقى فى الشعب بسند ضعيف من حديث عكرمة عن عمر مرفوعاً . ولم يقف عليه ابن الصلاح فقال فى مشكل الوسيط : إنه غير معروف » .

(٢) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٦) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

وسبق أنْ مثَّلْنا لذلك ، ولله المثل الأعلى ، برئيس العمل الذى يُصدر أوامره بوسائل مختلفة حَسْب أهمية المأمور به ، فقد يكتفى بأن (يُؤشر) على ورقة ، وقد يُوصى بها ، أو يطلب الموظف المختص فيُحدِّثه (بالتليفون) ، فإنْ كان الأمر هاماً استدعاه شخصياً إلى مكتبه وكلَّفه بما يريد .

وكان هذا الاستدعاء تشريفاً لسيدنا رسول الله بقرب المرسَل إليه من المرسِل ، فأراد الحق - سبحانه وتعالى - ألاَّ يحرم أمة محمد من فضل أسبغه على محمد فكأنه قال : مَنْ أراد من عبادى أنْ يقرب منى كما قرب محمد فكان قاب قوسين أو أدنى فليُصلِّ .

ومعنى ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] إقامة الشيء : أداؤه على الوجه الأكمل الذى يؤدى غايته ، فالصلاة المطلوبة هى الصلاة المستوفاة الشروط والتى تقيمها كما يريدها مُشرِّعها ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت]

والصلاة إذا استوفتْ شروطها نهتْ صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، فإذا رأيتَ صلاة لا تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، فاعلم أنها ناقصة عما أراده الله لإقامتها ، وعلى قَدْر النقص تكون ثمرة الصلاة فى سلوك صاحبها ، وكأن وقوعك فى بعض الفحشاء وفى بعض المنكر يُعَدُّ مؤشراً دقيقاً لمدى إتقانك لصلاتك وحرصك على تمامها وإقامتها .

ومعنى ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] واضح فى قول النبى ﷺ لما قيل له : يا رسول الله ، إن فلاناً

يصلى ، لكن صلاته لا تنهاه عن الفحشاء والمنكر ، فقال : « دعوه ، فإن صلاته تنهاه »[1] .

فالمعنى هنا أن الأمر ليس أمراً كونياً ثابتاً لا يتخلف ، بل هو أمر تشريعى عُرْضة لأنْ يُطاعَ ، وعُرْضة لأنْ يُعصى ، فلو كان الأمر كونياً ما جرؤ صاحب صلاة على الفحشاء والمنكر ، ومثال ذلك أن أقول مثلاً لأولادى قبل أن أموت : يا أولادى ، هذا بيت يكرم مَنْ يدخله . كلام على سبيل الخبر ولم أقل : أكرموا مَنْ يدخله ، فالذى يحترم وصيتى منهم يكرم مَنْ يدخل بيتى من بعدى ، والذى لا يحترم الوصية لا يُكرم مَنْ يدخله . أما لو قلت : أكرموا مَنْ يدخل هذا البيت فقد ألزمتَ الجميع بالإكرام .

وأوضح من هذا قوله تعالى فى شأن المسجد الحرام : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا .. (٩٧) ﴾ [آل عمران] فلما حدث أن اقتحمه بعض أصحاب الأهواء ، وأطلقوا النار فى ساحاته ، وقتلوا فيه الآمنين قامتْ ضجة كبيرة تُشكِّك فى هذه الآية : كيف يحدث هذا والله يقول ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا .. (٩٧) ﴾ [آل عمران] فأقاموا هذه الأحداث دليلاً على كذب الآية والعياذ بالله .

وهذا المسلك منهم يأتى عن عدم فهم لمعنى الأمر الكونى والأمر التشريعى ، فقوله تعالى : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا .. (٩٧) ﴾ [آل عمران] أمر تشريعى قابلٌ لأنْ يُطاع ، ولأنْ يُعصى ، كأن الحق - سبحانه وتعالى - قال : أَمِّنُوا مَنْ دخل البيت ، فبعض الناس امتثل للأمر ، فأمَّن مَنْ فى البيت الحرام ، وبعضهم عصى فروَّع الناس ، وقتلهم

---

(١) عن أبى هريرة قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : إن فلاناً يصلى بالليل ، فإذا أصبح سرق . قال « إنه سينهاه ما تقول » أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٤٤٧) والبزار (١/٣٤٦ - كشف الأستار) وابن حبان (ص ١٦٧ - موارد الظمآن) قال الهيثمى فى المجمع (٢/٢٥٨) : « رجاله رجال الصحيح » .

في ساحته . ولو كان أمراً كونياً ما تخلَّف أبداً كما لم تتخلف الشمس مثلاً يوماً من الأيام .

وكذلك الأمر في ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] فالصلاة تشريع من الله ، فإذا كان الله تعالى هو المشرِّع ، وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. (٩٠) ﴾ [النحل] الله عز وجل نهانا ، لكن هل انتهينا جميعاً ؟

إذن : نقول : الصلاة في ذاتها لا تنهاك ، لأن هذا أمر شرعيٌّ .

والبعض يرى أن المعنى ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] يعني : لا يوجد معها فحشاء ولا منكر ، وهذا أيضاً صحيح ؛ لأنني حين أدخل في الصلاة بتكبيرة الإحرام فإن هذه التكبيرة تحرم عليَّ كل ما كان حلالاً لي قبل الصلاة ، ففي الصلاة مثلاً لا آكل ولا أشرب ولا أتحرك ، مع أن هذه المسائل كانت حلالاً قبل الصلاة ، فما بالك بما كان حراماً عليك أصلاً قبل الصلاة ؟ إذن : فهو حرام من باب أَوْلَى .

فالصلاة بهذا المعنى تمنعك من الفحشاء والمنكر في وقتها ؛ لأن تكبيرة الإحرام (الله أكبر) تعني أن الله أكبر من كل شيء في الوجود حتى من شهوات النفس ونزواتها ، وإلاَّ فكيف تقيم نفسك بين يدي ربك ، ثم تخالف منهجه ؟ فالصلاة بهذا المعنى تنهى على حقيقتها عن الفحشاء والمنكر .

ومعنى (الفَحْشَاء) كل ما يُسْتفحش من الأقوال والأفعال (والمنكَر) كل شيء يُنكره الطبع السليم ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] ذكر : مصدر ، والمصدر يُضاف للفاعل مثل : أعجبني ضَرْب الأمير لزيد ، ويُضاف للمفعول مثل : أعجبني ضَرْب زيد من

الأمير ، فحين تقول ذكر الله يصح أن يكون المعنى : ذكْر صادر من الله ، أو ذكْر صادر من العبد لله .

فإنْ قلتَ : ذكْر صادر من الله ، أى للمصلِّى ، فحين يصلى الإنسان ، ويذكر الله بالكبرياء فى قوله الله أكبر ويُنزِّهه بقول سبحان الله ، ويسجد له سبحانه ويخضع ، فقد فعلتَ إذن فعْلاً ذكرتَ الله فيه ذكْراً بالقول وبالفعل ، والله تعالى يجازيك بذكركَ له بأن يذكرك ، فالذكر ذكر من الله لمن ذكره فى صلاته .

ولا شكَّ أن ذكر الله لك أكبر ، وأعظم من ذكْرك له سبحانه ؛ لأنك ذكرتَ الله منذ بلوغك إلى أن تموت ، أما هو سبحانه فسيعطيك بذكرك له منازل عالية لا نهايةَ لها فى يوم لا تموت فيه ولا تنقطع عنك نعَمه وآلاؤه ، فالمعنى : ولذكر الله لك بالثواب والرحمة أكبر من ذكْركَ له بالطاعة(1) . هذا على معنى أن الذكر صادر من الله للعبد .

المعنى الآخر أن يكون الذكْر صادراً من العبد لله ، يعنى : ولذكْر الله خارج الصلاة أكبر من ذكْر الله فى الصلاة ، كيف ؟ قالوا : لأنك فى الصلاة تُعد نفسك لها بالوضوء ، وتتهيأ لها لتكون فى حضرة ربك بعد تكبيرة الإحرام ، فإذا ما انتهتْ الصلاة وخرجتَ منها إلى حركة الحياة فذكْرك لله وأنت بعيد عن حضرته وأنت مشغول بحركة حياتك أعظم وأكبر من ذكْرك فى الحضرة .

ومثال ذلك - ولله تعالى المثل الأعلى - مَنْ يمدح الأمير ويُثنى عليه فى حضرته ، ومَنْ يمدحه فى غيبته ، فأيُّهما أحلى ، وأيُّهما أبلغ وأصدق فى الذكْر ؟

---

(1) قال معناه ابن مسعود وابن عباس وأبو الدرداء وأبو قرة وسلمان والحسن ، وهو اختيار الطبرى . قاله القرطبى فى تفسيره (٧/٥٢٣٩) .

واقرأ فى ذلك قوله تعالى عن صلاة الجمعة :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ .. ⑨ ﴾ [الجمعة]

يعنى : ذكْر الله فى الصلاة ، ولا تظنوا أن الذكْر قاصر على الصلاة فقط إنما : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ⑩ ﴾ [الجمعة] فيجب ألاَّ يغيب ذكْر الله عن بالك أبداً ؛ لأن ذكْرك لربك خارج الصلاة أكبر من ذكْرك له سبحانه فى الصلاة .

ورُوى عن عطاء بن السائب أن ابن عباس سأل عبد الله بن ربيعة : ما تقول فى قوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. ⑮ ﴾ [العنكبوت] ؟ فقال : قراءة القرآن حسَن ، والصلاة حسن ، وتسبيح الله حسن ، وتحميده حسن ، وتكبيره حسن ، والتهليل له حسن . لكن أحسن من ذلك أن يكون ذكْر الله عند طروق المعصية على الإنسان ، فيذكر ربه ، فيمتنع عن معصيته .

فماذا قال ابن عباس ـ مع أن هذا القول مخالف لقوله فى الآية ـ؟ قال : عجيب والله[1] ، فأعجب بقول ابن ربيعة ، وبارك فهمه للآية ، ولم ينكر عليه اجتهاده ؛ لأن الإنسانَ طبيعى أن يذكر الله فى حال الطاعة ، فهو متهيىء للذكْر ، أما أنْ يذكره حال المعصية فيرتدع

(١) أورده ابن جرير الطبرى فى تفسيره ، وكذا ابن كثير فى تفسيره (٣/٤١٥) قال عبد الله ابن ربيعة : قال لى ابن عباس : هل تدرى ما قوله تعالى ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. ⑮ ﴾ [العنكبوت] ؟ قلت : التسبيح والتحميد والتكبير فى الصلاة وقراءة القرآن ونحو ذلك . قال : لقد قلت قولاً عجيباً ، وما هو كذلك ، ولكنه إنما يقول : ذكر الله إياكم عندما أمر به أو نهى عنه إذا ذكرتموه أكبر من ذكركم إياه » . قال السيوطى فى الدر المنثور (٦/٤٦٦) : أخرجه الفريابى وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى شعب الإيمان .

عنها ، فهذا أقوى وأبلغ ، وهذا أكبر كما قال سبحانه ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. (٤٥)﴾ [العنكبوت]

لذلك جاء فى الحديث الشريف : « سبعة يظلهم الله فى ظلِّه ، يوم لا ظلَّ إلا ظله ـ ومنهم : ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله »[1] هذا هو ذكر الله الأكبر ؛ لأن الدواعى دواعى معصية ، فيحتاج الأمر إلى مجاهدة تُحوِّل المعصية إلى طاعة .

أما قول ابن عباس فى ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. (٤٥)﴾ [العنكبوت] أن ذكْر ربكم لكم بالثواب والرحمة أكبر من ذكْركم له بالطاعة . وحيثيات هذا القول أن ربك ـ عز وجل ـ لم يُكلِّفك إلا بعد سنِّ البلوغ ، وتركك تربع فى نعمه خمسة عشر عاماً دون أنْ يُكلفك ، ثم يُوالى عليك نعمه ، ولا يقطع عنك مدده حتى لو انصرفتَ عن منهجه ، بل حتى لو كفرتَ به لا يقبض عنك يد عطائه ونعمه .

إذن : فذكْر الله لك بالخَلْق من عدم ، والإمداد من عُدم ، وموالاة نعَمه عليك أكبر من ذكْرك له بالطاعة ، وقد ذكرك سبحانه قبل أنْ يُكلِّفك أن تذكره . كما أن ذكركم له سبحانه بالطاعة فى الدنيا موقوت ، أما ذكْره لكم بالثواب والجزاء والرحمة فى الآخرة فممتد لا ينقطع أبداً .

ثم تختم الآية بقوله سبحانه : ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥)﴾ [العنكبوت] هذه الكلمة نأخذها على أنها بشارة للمؤمن ، ونذارة للكافر ، كما تقول للتلاميذ يوم الامتحان : سينجح المجتهد منكم ، فهى بشارة

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٣١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، ضمن حديث : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق فى المساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » .

للمجتهد ، وإنذار للمهمل ، فالجملة واحدة ، والإنسان هو الذى يضع نفسه فى أيهما يشاء .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

الحق ـ تبارك وتعالى ـ يُعلِّمنا كيف نجادل أهل الكتاب ، وقبل أن نتكلم عن ألوان الجدل فى القرآن الكريم نقول : ما معنى الجدل ؟

الجدل : مأخوذ من الجَدْل ، وهو فَتْل الشىء ليشتد بعد أنْ كان ليناً كما نفتل حبالنا فى الريف ، فالقطن أو الصوف مثلاً يكون منتفشاً يأخذ حيزاً واسعاً ، فإذا أردْنا أن نأخذ منه خيطاً جمعنا بعض الشعيرات ليُقوِّى بعضها بعضاً بلفِّها حول بعضها ، وبجَدْل الخيوط نصنع الحبال لتكون أقوى ، وعلى قَدْر الغاية التى يُراد لها الحبل تكون قوته .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٧/٥٣٤٠) :

« اختلف العلماء فى قوله تعالى ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [العنكبوت]

ـ فقال مجاهد : هى محكمة ، فيجوز مجادلة أهل الكتاب بالتى هى أحسن على معنى الدعاء لهم إلى الله عز وجل ، والتنبيه على حججه وآياته ، رجاء إجابتهم إلى الإيمان ، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة .

ـ وقيل : هذه الآية منسوخة بآية القتال قوله تعالى ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [التوبة] » .

ثم قال القرطبى : « قول مجاهد حسن ؛ لأن أحكام الله عز وجل لا يُقال فيها إنها منسوخة إلا بخبر يقطع العذر ، أو حجة من معقول . واختار هذا القول ابن العربى » .